الثقافة الشعبية بين حضارة المشافهة وحضارة الكتابة

الطيب بودربالة(*)

ملخص:

أن الثقافة الشعبية لصيقة بالإنسان وملازمة له حيثما وجد،لأنها متصلة بأبنيته الأنثروبولوجية العميقة وبحضوره الاجتماعي وبنشاطه اليومي . كما تتصل الثقافة الشعبية باللاشعور الجمعي والأساطير والمعتقدات والنماذج العليا المتعالية على التاريخ . ولعل التحول الحاسم في تاريخ الإنسانية يتمثل في اكتشاف الكتابة والذي تم على مراحل عديدة، وفي مناطق مختلفة من العالم. وقد ساعد هذا الاكتشاف الذي هو نتاج تطورات وارهاصات معقدة على ترقية التواصل الأنساني وتعميق وعي الإنسان بنفسه وبيئته في مواجهة كثير من التحديات. ليتقلص دور حضارة المشافهة داخل دوائر النخب الفاعلة والفعالة من علماء وفلاسفة وساسة ومثقفين والتي تتحكم في آليات اشتغال حضارة الكتابة . وتستمر الطبقات الشعبية، رغم تأثرها بحضارة الكتابة، في التشبع بالعادات والتقاليد الموروثة والانصهار في تعاليم وقيم الثقافة الشعبية التي تتكفل بكل مجالات الحياة ، وتحمي الإنسان من أخطار التيه والضياع.

Abstract :

Popular culture is a part of a man's daily life, since it has to do with deep anthropological structure, his social presence and his daily activities. It also relates to collective ballahaour, legends and beliefs and supreme models and condescending on history. And perhaps the biggest transformation in human history is the discovery of writhing which was done on many levels and in many places in the world, and this discovery being the result of countless developments and complicated harbingers helped improve human communication and deepen its awareness of itself and its surroundings and facing the many challenges that awaited them. Thus the role of oral communication depleted among effective elites from philosophers and scientists to political figures and the educated category which controlled the functioning mechanisms of the writhing civilization. Although the popular classed were affected by the writing civilization, they kept getting saturated by the habits and traditions that were inherited and started fusing with the teaching and values of popular culture that provides for all areas of life, and protects the man from the dangers of wandering and loss.

في البدء كانت الكلمة، وكانت الكلمة هي الحياة. عاشت الإنسانية منذ فجر التاريخ، ولعشرات الآلاف من السنين دون كتابه، معتمدة في تواصلها بصفة كلية على الأصوات والحركات والإيماءات والإشارات التي تحقق الاتصال الحي والفوري بين أفراد الجماعة البشرية الأولى. وعاشت الجماعات البشرية القديمة حياة الفطرة والبراءة الأولى في وفاق كلي مع الذات والآخرين والطبيعة والكون

* أستاذ التعليم العالي، جامعة باتنة.

والمطلق، وفي تقديس القيم والانتماءات العضوية المطلقة التي توحد وتصهر كل عناصر الحياة مع بعضها البعض داخل كلية واحدة شاملة جامعة. إنه مجتمع الأسطورة الذي يتكفل بالإنسان ويؤطر الثقافة والحياة ويضفي الدلالة على الوجود.

ولعل التحول الحاسم في تاريخ الإنسانية يتمثل في اكتشاف الكتابة والذي تم على مراحل عديدة، وفي مناطق مختلفة من العالم، وقد ساعد هذا الاكتشاف الذي هو نتاج تطورات وإرهاصات معقدة على ترقية التواصل الإنساني وتعميق وعي الإنسان بنفسه وبيئته في مواجهة كثيرمن التحديات.

إنها الثورة الكبرى والملحمة العظمى التي أدت إلى تجسيد حلم الإنسان في تشييد حضارات غيرت مجرى التاريخ. وحتى في يومنا هذا لا يزال الغموض يكتنف حضارات الكتابة وكل ما يتعلق بالمراحل الأولى والتحولات المختلفة. لماذا ظهرت الكتابة؟ هل هناك حتمية وراء ظهورها؟ كيف تجلت في طفولتها الأولى؟ هل ظهرت في منطقة واحدة من العالم ثم تأثرت بها مراكز ثقافية أخرى، استنادا إلى مبدأ المثاقفة وسنن التأثر، أم ظهرت في مناطق مختلفة ومعزولة عن بعضها البعض، تأسيسا على فكرة أن "الحاجة أم الاختراع" وأن العبقرية الحضارية ليست حكرا على جماعة بشرية دون الأخرى، وأن العقل الإنساني موزع بالتساوي على كل أبناء البشر، كما يقول الفيلسوف ديكارت (وهذا ما ذهبت إليه أيضا النظرية الأنثروبولوجية الوظيفية)؟

تبين حفريات ما قبل التاريخ أن هاجس الكتابة راود الإنسان منذ القديم، وخير شاهد على ذلك تلك الرسومات والنقوش التي تزخر بها بعض الكهوف في مناطق عدة من العالم، مثل كهوف التاسيلي، في أقصى جنوب الجزائر. إنه هاجس البقاء والخلود كثقافة، كإنسانية و كحضارة.

وقد بين علماء الأنثروبولوجيا والمؤرخون بما لا يدع مجالا للشك أن الإرهاصات الأولى للكتابة ظهرت قبل ما يزيد عن خمسة آلاف سنة خلت في منطقة الشرق الأوسط، وتسمى مرحلة ما قبل الكتابة بمرحلة ما قبل التاريخ، تمييزا لها عن مرحلة الكتابة التي أطلق عليها تسمية مرحلة التاريخ (مرحلة التاريخ القديم تدقيقا) . ويرجح هؤلاء العلماء المختصون ظهور الكتابة السومرية في بلاد الرافدين منذ ما يقرب من خمسة آلاف سنة أهل هذا البلد ليكون مهد الكتابة والحضارة الإنسانية[1]. ولم تلبث مراكز الشرق القديم في الشام وفلسطين ومصر والجزيرة العربية أن استلمت المشعل لتضفي على التجارب الأولى من عبقريتها الشيء الكثير، تحويرا وتعديلا واختزالا وإضافة.

ويبدو في هذا السياق التطور الأوربي الكبير والمتنوع، بالمقارنة، مقلدا وسلبيا بشكل مطلق أمام الشرق القديم الذي استطاع ابتكار أول كتابة للإنسانية. وقد استلزم الأمر مرور قرون عديدة، بشهادة هيرودوت نفسه، حتى يتمكن اليونان

[1]- لوهانس فريديريش،تاريخ الكتابة، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، 2004

من استيعاب المنجز الكتابي الذي تحقق في الشرق الأوسط بفعل الاحتكاك والمثاقفة.

وقد مرت الكتابة في العصور القديمة بخمس مراحل:

الكتابة بالفكرة (أي بالموضوعات).

الكتابة بالصورية الرمزية (أو الكتابة بالكلمة).

الكتابة التصويرية التجريدية (مثل الكتابة الصينية).

الكتابة المقطعية.

الكتابة الأبجدية (الألف بائية)[1]

ولم يبقى من الكتابات القديمة إلا اللغة الصينية (وبعض مشتقاتها مثل الكتابة اليابانية) نظرا لسيطرة الكتابة الأبجدية على العالم.

وقد أدرك الإنسان القديم أن منطق الذاكرة في الحفظ والنقل وتخزين المعلومات وروايتها عبر الأجيال والأحقاب لا يضمن استمرارية التواصل والبقاء في الزمان والمكان والتاريخ والثقافة. وهذا ما حدا به إلى توجيه طاقاته الإبداعية نحو ابتكار هذه الوسيلة الجديدة والارتقاء في مدارج التطور والكمال. كما أدرك في الأزمنة اللاحقة أن الكتابة التصويرية، نظرا لصعوبتها ولتعقيدها، ونظرا لطابعها النخبوي الطبقي الذي يجعلها حكرا على دوائر التجارة والمال أو دوائر الطقوس الدينية والسياسية، فإنها لا تفي بالغرض المطلوب في تحقق تواصل شامل على المستوى الكمي والنوعي. لقد بقيت الأنماط الكتابية الأولى في أبراجها العاجية، دون تأثير كبير على ديناميكية الحياة وضرورة المجتمعات، رغم إسهاماتها الحضارية التي لا تجوز نكرانها. لذلك بقيت المشافهة مسيطرة إلى حد كبير على الحياة الاجتماعية، بعيدا عن طقوس الكتابة المتداولة لدى رجال الدين ورموز الحكم وأثرياء المجتمع.

وبعد مدة طويلة توجت جهود الفعل الحضاري الإنساني بابتداع الكتابة الصوتية التي تقوم على رسم عدد معين من الحروف للتعبير عن الأصوات المكونة للكلمات. وهكذا أصبح الحرف، باعتبارهبني ذرية، يؤسس عند تعالقه مع الحروف الأخرى كلمات منطوقة تمثل الوحدات الدلالية الأساسية للخطاب. وقد سعت كل حضارة، تبعا لخصوصياتها، إلى رسم حروف أبجديتها وتوزيعها بطريقتها الخاصة،

[1]- تطرح هذه الإشكالية كذلك بالنسبة للغات التصويرية، فاللغة الصينية مثلا تكتب من اليمين إلى اليسار ومن فوق إلى تحت.

ويبدو أن الأبجدية كانت في بدايتها تكتب من اليمين إلى اليسار ولم تشذ عن هذهالقاعدة حتى اللاتينية في طفولتها الأولى، قبل أن تتحول إلى كتابة من الشمال إلى اليمين[1].

على أنقاض نموذج الكتابتين الكبيرتين، المسمارية والمصرية، ظهرت الكتابة الأبجدية السامية مختزلة مئات من الرموز الصعبة ومؤسسة لكتابة سهلة ميسرة اقتصادية في متناول كل أفراد الجماعة البشرية دون إقصاء. وتمثل الكتابة الفينيقية، اعتمادا على أقدم النصوص التي وصلتنا والتي تعود إلى القرن العاشر قبل الميلاد، المنظومة الخطية الكاملة والنواة الصلبة الحقيقية للأبجدية الإنسانية. وهي تتألف من اثنين وعشرين حرفا ساكنا وتكتب من اليمين إلى اليسار، وقد مهدت لها الأبجدية الأوجاريتية (شمال سوريا) والأبجدية السينائية (في صحراء سيناء) بين الفترة الممتدة من القرن الخامس عشر حتى القرن الثالث عشر قبل الميلاد. ثم توالت الكتابات الأخرى مثل الكتابة البونية، المؤابية، العبرية، العمونية واليونانية فاللاتينية. علما بأن لكتابة اليونانية التي تعد أصل الأبجديات الأوروبية تعود أساسا إلى الخط الفينيقي الذي أخذه اليونان عن الفينيقيين،بشهادة مؤرخهم هيرودوت نفسه، في القرن التاسع قبل الميلاد، بعد تغييرات جوهرية مست البنية الخطية الفينيقية الأصلية. ثم جاء الخط اللاتيني متأثرا بالنموذج اليوناني ليؤطر الحضارة الرومانية ويفرض نفسه على أوروبا المسيحية طيلة القرون الوسطى، وهو خط مهيمن على الحضارة الغربية منذ بداية عصر النهضة.

مع ابتداع الخط، دخلت الإنسانية عهدا جديدا وحاسما في تاريخها،وهو عهد الكتابة والتدوين والعلم والاتصال الواسع. وهكذا تحول مركز ثقل الإنساني من حاسة السمع والى حاسة البصر وما تبع ذلك من نتائج هامة على مستوى الوجدان والعقل والسلوك والإحساس والكينونة الكلية للإنسان. لكن روح بروميثيوس النابضة والمتدفقة داخل الإنسان لا تطمئن بصفة نهائية إلى اكتشاف أو ابتكار، إنها روح قلقة متوترة تتطلع داوما إلى النور والسمو والتقدم والكمال والتجاوز. أدى تعطش الإنسان إلى الرقي والتطور إلى ابتكار الكتابة على يد العالم الألماني جوتنبرج سنة 1454.وبذلك تحققت ثورة كبرى فتحت آفاقا واعدة للأزمنة الحديثة وكرست حضارة الكتابة وقوة سيطرتها على كل مجالات الحياة، جاعلة العقل الغربي معتدا أكثر بنفسه وجاعلا من ذاته نموذجا للكمال في التفكير والتشريع والإبداع والسياسة.

الثقافة الشعبية وجدلية المشافهة والكتابة.

يجدر بنا أن نشير إلى أن الثقافة الشعبية لصيقة بالإنسان وملازمة له حيثما وجد،لأنها متصلة بأبنيته الأنثروبولوجية العميقةوبحضوره الاجتماعي وبنشاطه اليومي . كما تتصل الثقافة الشعبية باللاشعور الجمعي والأساطير والمعتقدات والنماذج العليا المتعالية على التاريخ . وقد اكتشف علماء الأسطورة أن الإنسان أسطوري بطبعه، تجري الأساطير في عروقه مجرى الدم، والإنسان بدون جذور ثقافية شعبية هو إنسان مقطوع من أصوله، ريشة في مهب الريح تزورها الرياح كيفما تشاء .

إن الثقافة الشعبية التي تحتل الصدارة في حضارة المشافهة دون منازع، تقلص دورها داخل دوائر النخب الفاعلة والفعالة من علماء وفلاسفة وساسة ومثقفين والتي تتحكم في آليات اشتغال حضارة الكتابة .

وتستمر الطبقات الشعبية، رغم تأثرهابحضارة الكتابة، في التشبع بالعادات والتقاليد الموروثة والانصهار في تعاليم وقيم الثقافة الشعبية التي تتكفل بكل مجالات الحياة ، وتحمي الإنسان من أخطار التيه والضياع والاغتراب.

يجب – بداية - أن نزيح اللبس عن بعض المفاهيم والتصورات، بهدف التصحيح والمراجعة ووضع الأمور في سياقاتها الحقيقية.إن بعض غلاة أنصار الكتابة ينفون عن المشافهة صفة الحضارة والمدنية، باعتبار أن المشافهة، حسب زعمهم،تنتمي إلى المرحلة البدائية المتوحشة التي تفتقرإلى العقل والمنطق والعلم والوعي التاريخي. وهي نظرة استعلائية متشبعة ببعض النظريات الأنثروولوجية الاستعمارية التي عرفت عصرها الذهبي في القرن التاسع عشر وجزء من القرن العشرين . ومع انتصار حركات التحرر في العالم الثالث في النصف الثاني من القرن العشرين، ومع مراجعة العقل الغربي لنفسه ،بعد انتكاساته المتكررة إثر الحروب الاستعمارية والحربين العالميين والجرائم الستالينية،شرع علماء الأنثروبولوجيا والأساطير والآداب الشعبية واللغات إلى إعادة الاعتبار لحضارة المشافهة وتبيان نزعتها الإنسانية وعبقريتها وأحقيتها في البقاء والخلود،وأضحى هؤلاء العلماء من كبار المدافعين عن حضارة المشافهة التي يرونها حاملة لروح البراءة الأولى وقادرة ببدائلها الناجعة على تطعيم وتخصيب حضارة الكتابة التي وصلت إلى الانسداد بعد اكتمال واستنفاذ دورتها الحضارية.فعلى سبيل المثال لا لحصر ،نذكر بعضا من هذه القمم الفكرية التي أنصفت حضارة المشافهة ودعت إلى فهمها من الداخل والتحاور

معها في ظل حوار الحضارات وتعدد الثقافات وتنوعها : مارجريت ميد[1]،ميرسيا إلياد[2] ، لفي ستروس[3] ، جاك جودي[4] ، جورج بالنديي[5] ، هامباتا با[6]، أونج[7] ...إلخ.

ازدهرت الثقافة الشعبية وعرفت عصورها الذهبية في ظل حضارة المشافهة التي تقوم على الصوت والإيقاع والموسيقى والفن والجسد بحركاته واشاراته وايماءاته وأقنعته و وشمه. داخل هذه المنظومة الشفوية المتماسكة يمثل الصوت المقام الأول .أصبحت حاسة السمع لدى الإنسان تستقطب كل مكونات الحياة، وتتقدم حتى على العقل والبصر: " والأذن تعشق قبل العين أحيانا " كما يقول الشاعر. العالم كلى بتفاصيله وجزئياته وكلياته، بحلوه ومره، بأفراحه و أتراحه، بانتصاراته وانتكاساته ، بسعادته وشقائه ، يذوب في هذا العضو الصغير الذي يضطلع بالاستيعاب والفهم والتأويل وانتاج الدلالة والجماعة والحضارة.

أدى تضخم هذه الملكة على حساب غيرها من الحواس والملكات والقدرات إلى تعالق عضوي فعال بين السماع والتلفظ (النطق)، مما أسس لتواصل جدلي وفوري يدمج الإنسان في اللحظة التاريخية ، لحظة الحضوروالمشاهدة والمشافهة ، في إطار سياقات وملابسات إنتاج الدلالة وتوزيعها واستقبالها داخل الجماعة البشرية. الصوت هو كل شيء. لا توجد حقيقة تعلوه . هذه الهيمنة المفرطة لحاسة السمع أدت بالضرورية إلى تنمية قدرات الإنسان القولية ومهاراته البلاغية والبيانية . مكنت حاسة السمع لدى الإنسان من الاتساع والامتداد والتضخم والانتشار، يحس وكأنه يحتضن العالم كله، وكأنه مركز الكون.

هذا التمركز حول الصوت يكتسي أحيانا طابعا مقدسا عندما يربط الإنسان بعوالم ميتا فيزيقية غيبية تقوم على الكهانة والسحر والطقوس الدينية (سجع الكهان). ويبدو أن الفنون الشعبية في بداياتها الأولى قد نبعت من العبادات والطقوس. يرى العالم الإعلامي الكندي ، مارشال ماك لوهان أن الصوت يعد وسيلة إعلامية باردة لأن المتلقي (السامع) يشارك بقوة وفعالية كبيرة في شحن الإرساليات وإنتاجها وبثها والتفاعل معها[8]. ولا يستطيع السامع إلا أن يقع تحت

[1] Margaret Mead
[2] MircéaEliade
[3] Claude -Levi Strauss
[4] Jack Goody
[5] Georges Balandier
[6] Hampâte Bâ
[7] Ong
-[8] Marshall Mc Luhan, *Understanding media*, New York, McGraw-Hill Book Company, 1964.

سحر الصوت :" إن من البيان لسحرا" كما يقول الحديث الشريف . إن الصوت وسيلة إعلامية باردة لأنه يحرك وجدان المتلقي ومشاعره ويفرض عليه ممارسة حريته وكينونته الفنية والإبداعية داخل هذه الفضاءات الواسعة التي تحرر الخطاب وتفتق قدراته التواصلية اللانهائية.

إن ثقافة المشافهة القائمة على الفنون القولية (الغناء، الشعر،الحكي، الخطابة) تستلزم المشاركة الوجدانية، والتفاعل الكلي مع موضوعات الرسالة وسياقاتها، مدمجة الإنسان في جسد المجتمع العضوي ومحققة تماهيا كليا بين العوالم الحيوانية والنباتية والجمادية . كل شيء يصبح حي وله روح . إنه عالم يرفض التبعثر والتشتت والذرية وينشد الوحدة والشمولية والعمومية والجماعية والإطلاق .

ولم يعد جسد الإنسان كيانا ذريا مفصولا عن العالم، بل محرك الحياة ومولد للعالم. كل مكونات الحياة تتألم وتتأوه وتتعذب وتنتشي وتتلذذ من خلال جسد الإنسان الذي تذوب فيه العوامل الخارجية وتنصهر كلية.

ويقول احد ممثلي المشافهة :" ليس لدنيا فن، لأنه حياتنا بكاملها هي فن ". يرى علماء البيولوجيات أن إنسان حضارة المشافهة يوظف بدرجة عالية الجزء الأيمن من المخ الذي يتحكم في المكونات الفنية للإنسان : الصوت – الأسطورة – العضوي - الكلية ، بخلاف حضارة الكتابة التي تستند إلى الجزء الأيسر من المخ والذي يتعلق بالمنطق والرياضيات والعلم والعمليات العقلية الصارمة .

ازدهرت حضارة المشافهة في المجتمعات القديمة التي كانت تقوم على الزراعة والرعي والصيد وحياة البداوة. وقد لعبت المرأة دورا جوهريا في حضارة المشافهة لما تتمتع به من مهارات كبيرة في الغناء والرقص وتربية الأولاد، وفق متطلبات النموذج الحضاري الشفوي.

كامرأة في حضارة المشافهة هي شهرزاد التي تحكي وتبكي وتغني. وزادت سلطة المرأة سموا وعظمة في المجتمعات الأميسية التي أوكلت إلى المرأة مهمة ومسؤولية تسيير الجماعة البشرية.

إن المشافهة، أمومة وأنوثة، بمفهومها الأنثروبولوجي والوجودي والرمزي، تتغنى بالأم الكونية، التي هي أصل الوجود، وبالأم– الطبيعة، واهبة الرزق والخير والخصوبة والنسل والنماء والولادة الدائمة (إيزيسوأوزوريس وأساطير البعث والنماء والإخصاب في الشرق الأوسط). ويعتقد بعض أعداءالثقافة الشعبية أنها عبارة عن فولكلور وعادات وتقاليد بالية يضمها متحف التاريخ . والحقيقة أن حضارة المشافهة ترفض هذا التصور العقيمللثقافة الشعبية، والذي يقوم على تصور هياكل عظيمة بالية بدون روح، مثل الفولكلور والتسلية والعجائبية والغرائبية المحنطة . إن حضارة المشافهة ترفض فكرة الإنسان الفولكلوري وتقوم على الإنسان الحضاري الشفوي الذي تتكفل المشافهة بكل جزئيات وتفاصيل ودقائق حياته منذ الولادة

حتى الموت .وفي غياب المعارف العلمية الدقيقة والأجوبة التاريخية الموضوعية الصحيحة، تلجأ حضارة المشافهة إلى ابتداع أجوبة معرفية أسطورية تفسر التاريخ وتفسر الكون والحياة، لأنه كما يقال إن "الطبيعة تخشى الفراغ ".إنها معارف تؤدي وظائفها الإنسانية في مرحلة تاريخية عجز العلم فيها عن محل هذه المعضلات المصيرية بالنسبة للإنسان . إن إنسانية المشافهة تعيش على قيم ورؤى للعالم ومعارف تقليدية تؤدي رسالتها ووظائفها على أكمل وجه في ظل موازين القوى الحضارية السائدة . ويعد احتلال أمريكا من طرف الرجل الأوروبي المسيحي المتشبع بحضارة الكتابة نوعا من الإبادة الثقافية لمجتمعات المشافهة التي كانت تعيش وفق حضارات المشافهة قبل وصول كريستوف كولمبس إلى أمريكا. وقد تمكنت حضارة الكتابة الأوروبية الغازية من نسف وتفجير حضارة المشافهة العريقة لشعوب وأمم المايا والأزتاكوالأنكا، في أمريكا الشمالية والوسطى والجنوبية.

هذا مثال حي عن صدام دموي ومواجهة كبرى بين حضارة غازية تقوم على الحديد والنار والقتل وحضارة مسالمة تنشد الاستقرار والتعايش السلمي مع الطبيعة والمحيط والكون. إن حضارة الكتابة غالبا ما تقوم على العنف والإبادة والقتل (الحقيقي أو الرمزي).

وإذا ألقينا نظرة على مكونات الثقافة الشفوية فإننا نجدها تتكون من عناصر مختلفة ومتضامنة مع بعضها البعض، لأن المجتمع الشفوي عبارة عن أمة صغيرة ملتحمة في العناصر ومتراصة في المكونات. وكل عنصر يؤدي دوره النسقي داخل إطار معين وفق اقتصاد تعبيري ودلالي محكم ، وأهم هذه المكونات:

الشعر -الغناء- الرقص - الأمثال والحكم - الألغاز - الأساطير - الملاحم - القصص - الحكايات - الخرافات - الأحاجي - الخطابة - النوادر.

إضافة إلى ذلك فإن الثقافة الشعبية تشمل العادات والتقاليد المتصلة بالأفراح والأتراح والأعراس والاحتفالات الزراعية كما ترتبط الثقافة الشعبية ببعض الحرف الخاصة بالحلي والنحت والنقش وصناعة أدوات الزينة.

وتتفنن الثقافة الشعبية في فنون الصناعة التقليدية وخاصة في مجال الألبسة والأقمشة والتطريز.

الثقافة الشعبية حاضرة أيضا في الأسواق والبيوع والتجارةوالفلاحة والأسواق بتعبيراتها وروائحها ومأكولاتها ومشروباتها المتنوعة وتوابلها وكل ما يدغدغ الحواس.

الثقافة الشعبية لصيقة أيضا بما يعرفبعبقرية المكان وهوية العمران وفق تصور يأخذ بعين الاعتبار عوامل كثيرة، منها ما يعود لطبيعة المكونات الاجتماعية وحقيقة المعتقدات، ومنها ما يتصل بطبيعة البيئة الجغرافية وقيود الطبيعة. تبين هذه

المكونات الثقافية أننا أمام حضارة متماسكة لها منطقها الخاص ورؤيتها للعالم وتصورهاللزمن والتاريخ.

تقوم حضارة المشافهة على الرواية والذاكرة الشفوية (الفردية والجماعية) والخيال الجامع الذي يشتغل على المادة السردية بالتحوير والإضافة والتضخيم .فالراوي في مجالس القص وفي الساحات العامة لا يهتم بالصدق والوفاء قدر اهتمامه بالجمهور وأفق انتظاره وتطلعاته وتعطشه لخوارق الأعمال وعجائب القصص وغرائب الأحداث . وكأن هناك عقدا ضمنيا يلزم الراوي بتلبية رغبات الجمهور واحتياجاته السردية الخيالية. يقوم الراوي بمسرحة القصص وأسطرتها ليضفي عليها مكونات غير واقعية تشد المستمع إلى عوالم خارقة تبهره وتدغدغ غرائزه وتدمجه داخل عوالم الجن والمخلوقات السحرية.

أنتجت حضارة المشافهة ما يعرف اليوم بالمرويات الكبرى، مثل الملاحم والأساطير والمآسي والقصص الشعبي والحكايات والخرافات. وقد أثبت علماء الأساطير والأنثروبولوجيا الثقافية أن هذه السرديات الكبرى نتيجة حتمية لتحكم القيم الثقافية الشفوية في الحياة الاجتماعية.إنها لحظة حضارية حاسمة في تاريخ شعوب المشافهة، لحظة أثمرت ملاحم السومريين والبابليين والكنعانيين والمصريين واليونان. إن ملاحم جلجامش والإلياذة والأوديسا وغيرها وليدة العبقرية الشفوية.ولولا ذلك لا استحال على الإنسانية أن تبتدع هذهالكنوز والروائع الأدبية العالمية الخالدة. وقد بين عالم الأنثروبولوجيا الأمريكي ميلمان باري، بعدمقارنة أجراها بين ملاحم هوميروس والملاحم اليوغوسلافية الشفوية الحديثة، أن هناك علاقة سببية حتمية بين المشافهة والملحمة[1].

كما بينت الدراسات المختلفة أن الملاحم الكبرى تمثل تحولا هاما في تاريخ الأمم والشعوب والحضارات وتحقق نقلة نوعية في مسيرة التطور الإنساني . إن ملحمة جلجلمش وغيرها من ملاحم بلاد الرافدين قد أسهمت دون شك في بلورة هوية ثقافية حضارية متميزة في هذه المنطقة مما جعلها مركز إشعاع كل بلدان الشرق الأوسط .

ويعود الفضل إلى ملاحم هوميروس في تأسيس الأمة اليونانية التي كانت في السابق عرضة للتشتت والتمزق والضياع . بعثت هذه الملاحم روح الانتماء والاعتزاز والافتخارلدى اليونان الذين أدركواأنهم يمثلون أمة فريدة من نوعها ، خلقت للاضطلاع برسالة حضارية عالمية في مواجهة الشعوب المتوحشة والهمجية التي تهدد المدنية والإنسانية . لذلك قسموا شعوب العالم إلى متحضرين وبرابرة (بارباروس)، وجعلوا الحضارة حكرا عليهم دون غيرهم . والكلام نفسه يمكن أن يقال بالنسبة للملاحم المؤسسة للأمة اللاتينية.

[1] - Ouvrage collectif,*Hommage à Milman Parry. Le style formulaire de l'épopée homérique et la théorie de l'oralité politique*. Amsterdam, Gieben, 1997

عرف العرب حضارة المشافهة طيلة عصور ما قبل الإسلام ، بدءا بحضارات اليمن وانتهاء بحضارات الشعوب الشمالية بعد انهيار سد مأرب ونزوح سكان الجنوب إلى كل جهات الجزيرة العربية وبلدان الشرق الأوسط . وتعد الأزمنة الحضارية التي سبقت الإسلام من قبيل المكبوت الحضاري والمسكوت عنه وغير المفكر فيه. ومن غرائب الأمور أن ما وصلنا من هذه الفترة وصلنا مكتملا ناضجا ممثلا لكمال البدايات وقداستها، مما يفرض على المتأخرين واجب الاقتداء والنسج على منوال القدماء الذين شيدوا صرح الحضارة العظيم. وقف العرب موقف الإعجاب والتقديس والتمجيد من هذه الحضارة الشفوية التي تتصل بالعصر الجاهلي.أما المراحل السابقة للعصر الجاهلي فقد تجاهلتها عمليات التدوين، إضافة إلى صعوبة استحضارها عن طريق الذاكرة والرواية، لبعد العهد الفاصل بين الحقبتين. وقد بين طه حسين في كتابه عن الشعر الجاهلي ، كيف أن الاعتبارات الإيديولوجية والدينية والسياسية تدخلت بقوة في صوغ نماذج جاهزة وتصورات نمطية عن الإبداعات الأدبية الجاهلية،بعيدة كل البعد عن الموضوعية والحقيقة. وعرفت هذه القضية بقضية الانتحال. وقد كشف القرآن الكريم، من باب التدبر والاتعاظ والاعتبار، عن بعض ملامح هذه الحضارات البائدة التي عرفتها الجزيرة العربية.

ورغم ذلك، فقد خلد التاريخ صورا رائعة وقمما فريدة من نوعها في مجال الإبداعات الشعرية والقصص الشعبي والبلاغة النثرية. إن الشعر الجاهلي بمعلقاته وأغراضه وموضوعاته وصوره وجمالياتهيجسد العبقرية الشعرية العربية في أسمى صورها ويبوئها الصدارة والسبق الإنساني. وقديما قيل "الشعر ديوان العرب "، فهو رمز مجدهم ومفخرة إنجازاتهم.

إلى جانب الشعر هناك قصص رائعة تتصل بأيام العرب : حرب داحس والغبراء، حرب البسوس، والسير الشهيرة، مثل سيرة عنترة، وسيف بن ذي يزن، وبعض قصص المناذرة في العراق والغساسنةفي الشام، وحروب القبائل في الجزيرة العربية. كما نبغ العرب في فنون البلاغة والخطابة والبيان والأمثال و الحكم.

وجاء القرآن الكريم معجزة عظمى وإعجازا مطلقا في الشكل المضمون، في اللغة والأسلوب، في الخيال والصور، في الأصوات والكلمات ، في نظمه ونسجه وأحكامه، في جزئياته وكلياته.إنه الكون القرآني الذي استوعب الكون الكلي وعالم الأسرار والحقائق الإلهية .

لقد تحدى القرآن العرب في أقدس مقدساتهم وأضخم منجزاتهم التي تكمن في قدراتهم ومهاراتهم البيانية والبلاغية واللغوية.وقد حيرت ظاهرة الإعجاز القرآني علماء المسلمين، وذهبوا في تفسيرها مذاهب شتى. وقد قال بعضهم بالصرفة(مذهب الباقلاني وأتباعه). غير أن النظرية التي وجدت رواجا كبيرا في القديم والحديث، هي نظرية "النظم" للجرجاني. إن القرآن قبل أن يجمع و يدون كان عبارة عن صرح

شفوي بامتياز. وقد انبثقت عن قراءة القرآن ومقروئيته علوم كثيرة، مثل علوم القراءات، والتجويد التي أسهمت في السمو بالقرآن إلى المنزلة التي هو أهل لها.

عمدت استراتيجية التدوين التي انطلقت في القرن الثاني للهجرة وعرفت عصرها الذهبي في القرن الرابع إلى نقل حضارة المشافهة العربية، في شقها الشعري خاصة إلى عالم النصوص والكتب لتكون منطلقا لعلوم فتية مثل علوم اللغة والبلاغة والنقد والنحو. ولكونها تمثل الأسطورة المؤسسة للهوية الثقافية العربية، فقد اعتمدت مرجعية كلاسيكية ونموذجا للسمو الإبداعي ينهل منه المبدعون اللاحقون وينسجون على منواله . وبلغ تقديس العرب لهذه المشافهة إلى حد الاستعانة بها في تفاسير القرآن وعلوم الحديث والدراسات القرآنية . وهي تمثل المصدر الأساسي للاحتجاج بالنسبة لعلوم اللغةالعربية .

في العصور الإسلامية اللاحقة، وموازاة مع حضارة الكتابة التي أشعت بنورها الساطع على العالم طيلة القرون الوسطى، استمرت المشافهة في الاشتغال والنشاط والتأثير على الإنسان العربي، في باديته وفي حواضره، في شرقه وفي غربه . وما لبثت أن تعززت بروائع إبداعية جديدة نبعت إما من صلب الحياة العربية ، مثل تغريبه بني هلال (وهي ملحمة بأتم معنى الكلمة)، أومنإلى البيئات الثقافية غير العربية، عن طريق الاحتكاك والمثاقفة والتأثربالهند وفارس واليونان. وخير شاهد على ذلك قصص كليلة ودمنة وحكايات ألف ليلة وليلة . وتحولت كثير من الروايات الشفوية المتصلة بالتراجم والسير الفردية والجماعية (سير دينية، شعرية ، سياسية وتاريخية) إلى عالم التدوين والكتابة . وقد اغتنت في هذه الفترة كتابات التاريخ بمكونات الذاكرة الشفوية فجاءت ممتزجة بالأساطير والخرافات .

وهكذا أخذت حضارة المشافهة تصب تدريجيا في مصب حضارة الكتابة وما نجم عن ذلك من نتائج وتحولات بالغة الأهمية، على مستوى عقلية الإنسان وحواسه ووجدانه ورؤيته للعالم . وقد حرص المسلمون كل الحرص على تجنب نقل حضارات المشافهة الخاصة بالأمم والشعوب الأخرى والتي تتعارض مع منطلقات التوحيد ومقدسات المجتمع الإسلامي . إنها خطوط حمراء توقفت عندها جهود المترجمين، وهذا ما يفسر عزوف المسلمين عن نقل الملاحم والأساطير والمسرحيات اليونانية التي تقوم على الوثنية وتعدد الآلهة .

إن الحضارة العربية الإسلامية بلغت ذروتها بفضل استيعابها للتراث العربي الأصيل وانفتاحها على التراث الإنساني العالمي بكل مكوناته . إنها " الوسطية " في كل شيء: في التاريخ والجغرافيا، في الثقافات والحضارات والقيم و في المشافهة والكتابة.وقد أهلت هذه الصفة الأمة العربية الإسلامية لوارثة كل الحضارات السابقة عليهاثم صوغ إنسانية جديدة داخل بوتقتها الفذة.

أما فيما يتعلق بأوروبا ، فإنه يجب علينا أن نميز بين الحضارتين اليونانية والرومانية من جهة، وحضارة القرون الوسطى من جهة أخرى . لقد ازدهرت قبل القرن الخامس قبل الميلاد في اليونان ثقافات شعبية راقية ، تميزت بالتنوع والثراء

والعراقة . وقد كان لحروب اليونان مع الفرس واتصالاتهم الدائمة ببلدان الشرق الأوسط، دور كبير في تمثل واستيعاب الحضارات الشرقية بأساطيرها ومعتقداتها وفنونها الشعبية. ونسوق هنا مثالا حيا عن التلاقح الحضاري بين اليونان والمصريين، من خلال مسرحيات سوفوكليس إيريبيدس وإسخيلوس .

لقد نهل رجال المسرح المذكورين من معين الأساطير المصرية الشهيرة والتي جرت قصصها في مملكة طيبا، جنوب مصر. فكل ما يتعلق بأوديب أو أنتيغونا أو بغيرهما من قصص هذه المملكة، هو من صميم الثقافة المصرية لكن المسرح اليوناني المأسوي تصرف بحرية في المادة الأسطورية الأصلية، تحويراً وإضافة، وأضفعليها فكرة المصير والقدر المحتوم .إن أوديب المصري الأصلي، عرف مصيرا يختلف تماما عن الذي حدده المسرح اليوناني . تحكي الروايات الأصلية بأنه تربع على العرش وتزوج من أمه، تماشيا مع العادات والتقاليد السارية ، لأن زواج المحارم لم يكن وقتها محظورا في مصر. فالأسطورة عندما ارتحلت عن بيئتها الشفوية الأولى عرفت تحولات أدمجتها في صلب الثقافة اليونانية المكتوبة ، لتعبر عن روح العصر وعن فلسفة الكتّاب وعن رؤيته الجمالية والإيديولوجية. إن هذه الدلالات الجديدة وهذه التحولات البنيوية والموضوعية تسمو بالأسطورة الشفوية إلى مصاف الأساطير الأدبية والحضارية العالمية الخالدة، كما يبين النقد الأسطوري ، انطلاقا من مبادئ التجلي والمطاوعة والإشعاعية[1].

إن المسرح اليوناني الذي يعد إحدى ركائز الحضارة الغربية، مدين في ظهوره للحضارة الشفوية اليونانية التى سبقت ظهور الكتابة. تجلت الإرهاصات المسرحية الأولى عند اليونان من خلال الطقوس الدينية التي كانت تقام في المعابد تمجيدا لزيوس كبير الآلهة وغيره. كما أسهمت الحفلات والأعياد والتظاهرات الشعبية المتصلة بالإخصاب والنماء والمواسم الزراعية في بلورة مسرح شعبي احتفالي يبشر بالإنجازات المسرحية الكبرى.

في القرنين، الخامس والرابع قبل الميلاد، تمكنت اليونان من الانتقال من العصر الأسطوري الشفوي إلى العصرالعلمي الحضاري، حيث الإبداعات المختلفة من تراجيديا وكوميديا وشعر وخطابة. كما تفتقت العبقرية الفلسفية اليونانية في هذه الحقبة التاريخية : سقراط، أفلاطون، أرسطو، الرواقيون، السفسطائيون..الخ . وعرف التاريخ أكبر مؤرخ في العصور القديمة ألا وهو هيرودوت.

إن العبقرية الحضارية اليونانية قامت على ركيزتين أساسيتين: الركيزة الحضارية الشفوية الداخلية والركيزة الحضارية الشفوية الشرقية . إن العناصر الدخيلة والأصيلة قد تفاعلت مع بعضها البعض في ظل عبقرية المكان وعوامل جغرافيةومناخية وتاريخية لترسم معالم حضارة عالمية متميزة. وقد استعانت الفلسفة

[1] - Pierre Brunel ,*Mythocritique* ,Paris, Gallimard , 1992 .

اليونانية بدءا بسقراط والسفسطائيين بمهارات المشافهة في الجدل والنقاش والحوار والحجاج لإنارة العقل وترقية المنهج العلمي واثبات الحقيقة .

عندما اكتملت الدورة الحضارية اليونانية وأدت رسالتها الإنسانية ، بدأ الوهن يدب في جسدها لتنهار بعد مدة وتسلم المشعل لأمة فتية ناشئة كانت تتحين الفرص للانقضاض على تركة الرجل المريض وتهيئ أسباب مغامرة حضارية جديدة. لقد انتصرت روما عسكريا على أثينا ولكنها انهزمت أمام هذه الأخيرة حضاريا كما يقال.أخذ الرومان جل المكونات الثقافية من جيرانهم اليونان، باعتبارهم خير خلف لخير سلف: الملاحم، الأساطير، المعتقدات، المسرح، الشعر، البلاغة، القصص، الفلسفة..الخ. ولكنهم وسموا هذه المكونات الثقافية بميسمهم الخاص. لقد كانوا في بداياتهم نقلة حضارة وتلاميذ أوفياء لأساتذتهم، ولكنهم لم يلبثوا أن تحسسوا طريقهم بكل حرية وبكل استقلالية مشيدين إمبراطورية سيطرت على بلدان البحر المتوسط وعلى مرحلة حاسمة من التاريخ القديم.

سقطت الإمبراطورية الرومانية سنة 476، بفعل ضربات القبائل الجرمانية القادمة من الشمال، وتحت تأثير الأزمات والتناقضات الداخلية التي كانت تنخر جسد الأمبراطورية الرومانية من الداخل.

تلقت حضارة الكتابة ضربة موجعة بسقوط روما، لأن الإبداعات الثقافية اللاحقة تؤثر المشافهة والتعبيرات الشعبية النابعة من أعماق الفئات الشعبية التي لم تعد تتحكم فيها الملكيات والإمبراطوريات والسلطات المركزية وثقافاتها المكتوبة. ظهر عهد جديد أسماه المؤرخين بالقرون الوسطى (وتسمى أيضا بعصور الظلام عند بعضهم) والذي امتد حتى سقوط القسطنطينية سنة 1453 على يد محمد الفاتح .

انتكست الكتابة انتكاسة كبيرة نتيجة انهيار الحواضر الرومانية الشهيرة وسيطرة القيم الريفية والزراعية والإقطاعية على الحياة الاجتماعية، ونتيجة حالةالانطواء والانعزال التي بدأت تعيشها المجتمعات الأوربية المنغلقة على نفسها بعيدا عن ديناميكية الحياة والتاريخ. مصائب قوم عند قوم فوائد كما يقال. رجعت الشعوب إلى هويتها وآدابها الشعبية ساعية إلى الانفصال عن تبعيتها للثقافة اللاتينية الرسمية المفروضة عليها في السابق.

بدأت هذه الشعوب الصغيرة تتحسس طريقها بصعوبة ولكن بكل ثقة لتتحرر من سيطرة اللغة اللاتينية والثقافة اللاتينية المحنطة . وقد كللت هذه الجهود بظهور لجهات محلية منبثقة من اللاتينية الأم وتسمى باللغات الرومانيستيكية، مثل الإيطالية والفرنسية والإسبانية والبرتغالية والرومانية . انتعشت هذه اللغات الجديدة وبدأت تدريجيا تستقل وتفرض نفسها على مجالس الأمراء والملوك وتؤطر النشاطات الثقافية المحلية ، شعرا وغناء وفولكلورا وسردا وملحمة . وقد تصدت الكنيسة لهذه اللغات الشفوية وحاربتها وحرمت ممارسة الشعائر الدينية في الأديرة والكنائس في هذه اللهجات التي بدأت تهدد كيان اللغة اللاتينية والشرعيات الدينية والسياسية التي تستند إليها.فقد حرم القس سان جيروم المشهور بترجمته للكتاب

المقدس، حرم ترجمة التوراة والإنجيل إلى اللغات " المنحطة " والتي يقصد بها اللهجات لمحلية.

في هذا المناخ التصادمي مع الكنيسة ومؤسساتها (لأن الكنيسة كانت تحتكر وقتها التعليم والتربية والثقافة والعلم والفكر والسلطة الزمنية) ، ازدهرت المشافهة كهوية وكقومية وكحضارة وكإنسانية أصيلة ترفض الذوبان في الكيان المسيحي الواسع وفي الأطر الإمبراطورية الاصطناعية التي تسعى لتنميط الحياة وتذويب الخصوصياتالجهوية. وقد وجدت المشافهة سندا قويا لدى بعض الأمراء الإقطاعيين الغيورين على صلاحياتهم وعلى فرادة مناطقهم .

في ظل موازين القوى الحضارية الجديدة برزت إلى الوجود الملاحم الشمالية والجرمانية وقصص وبطولات الفايكنغ الحاملة لمعتقدات وأساطير هذه الشعوب المحاربة التي دوخت شعوب أوربا الوسطى والجنوبية. وقد ساعد على رواج وانتشار هذه السرديات الكبرى شعراء شعبيون جوالون Troubadours يسيحون في الأرض وينتقلون عبر كل البلدان الأوروبية متغنين بالبطولات والأمجاد والملاحم. ولم يكتف هؤلاء الشعراء ببعث التراث الشعبي الأوروبي من مرقدة ، بل أثروه بما وصلهم من أشعار العرب وسردياتهم ، بفضل احتكاك أوروبا بالمسلمين، عن طريق الأندلس وملطا والحروب الصليبية والتواصل المتوسطي . وما زاد في تقوية التوجه الجديد أن مكونات هامة من الثقافة اللاتينية المكتوبة قد تحولت نتيجة سيادة الأمية والجهل إلى مكونات ثقافية شفوية.

ونذكر على سبيل المثال لا الحصر بعضا من كنوز الثقافة الشعبية التي خلدتها حضارة المشافهة لتتحول في مراحل لاحقة إلى روائع الآداب العالمية:

ما يتعلق بقصص الملك آرثر وفرسان الطاولة المستديرة ، والبحث عند سر الجرال وقصص الساحر مارلين . وهي تمثل مقاومة الثقافة الشمالية المحلية (إنجلترا ، اسكتلندا ، أيرلندا، شعوب الشمال) للمكونات الثقافية المسيحية اللاتينية الوافدة من الجنوب والتي خلدها كريتيان دوتروا في روائعه الشهيرة . إنها الروح الشمالية الجرمانية الثائرة التي تتمرد على الجنوب اللاتيني الذي يسعى دوما للتحكم في الشمال بآليات واستراتيجيات جديدة .

ما يرتبط بقصص الملك ريتشارد قلب الأسد وروبن هودوإيفا نوي والصراع بين العنصر الإنجليزي والعنصر السكسوني في إنجلترا، غداة الحروب الصليبية

ما يتصل بقصص المواجهة مع المسلمين في شمال الأندلس، يظهر هذا جليا في ملاحم رولان البطل الفرنسي الذي يواجه جيوش المسلمين " المور" داخل مسالك جبال البيرينيس الوعرة ، حيث يقتل في كمين بفعل خيانة أحد أمراء الجيش الفرنسي . كما ازدهرت في إسبانيا في مرحة "الروكونكيستا " ملاحم "

"الماتامور " التي تتغني بالمحارب الإسباني الذي يواجه المسلمين في الحروب . وتمثل ملحمة " السيد" نموذجا لهذا القصص الشعبي .

وقد غذت هذه القصص الشعبية مشاعر العداوة والبغضاء تجاه المسلمين وكانت بمثابة الإسمنت المسلح الذي وحد الشعور الديني والقومي وشكل الهوية الأصلية في مواجهة الآخر المختلف الذي يشكل خطرا على الانتماءات الأصلية . وتعود كثير من الصور النمطية والنماذج الجاهزة القابعة في المتخيل الغربي إلى هذه المرحلة الحاسمة من المواجهة بين الأوروبيين والمسلمين .

إن ما عاشته أوروبا خلال القرون الوسطى من ازدهار ورقي في عالم المشافهة يشبه إلى كبير ما عرفه العالم الإسلامي في عصور الانحطاط التي تتزامن بداياتها مع خروج المسلمين من الأندلس واكتشاف أمريكا من طرف كريستوف كولومبس ، سنة 1492 . إن الحضارات مثل الكائن الحي ، تولد ثم تنمو لتصل إلى مرحلة الاكتمال فالكهولة والشيخوخة والفناء . ولا يوجد مثال واحد في التاريخ عن خلود حضارة معينة.لكننا في المقابل لا نجد ما يمكن أن نسميه بالفراغ الحضاري. فعندما تسقط حضارة ما تسلم المشعل لحضارة فتية جديدة تقوم على أنقاضها. ذلك أن الحضارة مثل الطبيعة ، تخشى الفراغ . وقد بين ابن خلدون، قبل فلاسفة التاريخ في العصر الحديث، الطابع الدوري للحضارة . لقد استلمت الحضارة الإسلامية مشعل الحضارات المنهارة السابقة عليها لتضطلع بدوره حضارية ورسالة إنسانية خالدة. ولكن، وبدافع غريزة البقاء، سلمت المشعل في بداية عصر النهضة الأوروبي إلى أوروبا الفتية الخارجة من عصور الظلمات والمتأهبة لتغيير وجه التاريخ. وعليه فإن سنة 1492 تكتسي رمزية بالغة الخطورة، نظرا لما تمثله من معان ودلالات بالنسبة للمسلمين وللغربيين على حد سواء. إنها سنة خروج أبي عبيد الله الصغير، آخر ملك من ملوك بني الأحمرمن إسبانيا وتسليمه مفاتيح مدينة غرناطة للملك فرديناند والملكة إزابيلا الكاثوليكية . وهي في الوقت ذاته تدشن ميلاد حلم عظيم بالنسب للأوروبيين. تقهقر وانحصار وانهيار من جهة. وتوسع وامتداد وانطلاقة حضارية من جهة أخرى. وقد اجتمعت كل العوامل والشروط الموضوعية من اكتشافات جغرافية كبرى، وسيطرة على طرق تجارية استراتيجية،واستيلاء على كنوز الهند الحمر، وحشد للطاقات الفكرية والعلمية التي هيأها عصر النهضة، وتحقيق تراكم رأس المال، والإصلاح الديني ، اجتمعت كلها لتهيئة الأجواء المناسبة لتحقيق نهضة حضارية تبشر بميلاد إنسانية الأزمنة الحديثة .ولا ننسى أن نشير في هذا الصدد إلى أن اكتشاف المطبعة من طرف العالم الألماني جوتنبرج ، سنة 1534، قد مهد لقيام أحدث شكل من أشكال حضارة الكتابة لم يسبق له مثيل في التاريخ .

سقطت غرناطة وقرطبة، وقبلهما سقطت بغداد على يد المغول .وتوالت الضربات والانتكاسات. إنها هجمة شرسة تحيط العالم الإسلامي من كل جانب .

هذا العالم الذي تكالبت عليها الأعداء من الداخل والخارج، صمد طويلا ، وصبر كثيرا، ولكن التحديات كانت فوق طاقته .

جاء عصر الانحطاط معلنا عن تقهقر حيز الكتابة وعن اضمحلال الروح الإبداعية التي فسحت المجال للتقليد والاجترار والتكرار. أغلق باب الاجتهاد وسدت منافذ الأبتكار وشلت القدرات الحضارية . إن الانحطاط، باعتباره ظاهرة كلية، يتصف بالشمولية والعمومية، بحيث لم يبق قطاع بمعزل عن الشلل العام والانهيار الكلي.

تقوم المجتمعات الإسلامية في عصر الانحطاط على التضامن العمودي الرأسي، بعد أن كانت تعيش لقرون طويلة، على العمق الجغرافي والامتداد الفضائي الحيوي والتواصل الثري والغني بين الحواضر الإسلامية من شرقها إلى غربها .أدى هذا التشتت والتلاشي إلى عودة القبيلة والبادية والريف إلى الوجهة وانتشار الطرقية على نطاق واسع.

في ظل التحولات الجديدة والانتكاسات الحضارية لم تجد المجتمعات الإسلامية المنهارة منقذا لها إلا الثقافية الشعبية التي اضطلعت بمهمة حضارية جديدة تتمثل في إنقاذ ما يمكن إنقاذه والتصدي للقوى الخارجية والداخلية التي تهدد كيان هذه المجتمعات وكينونتها، والتكفل بإدماج الأفراد والجماعات داخل منظومة اجتماعية وثقافية متماسكة. واستمرت هذه الثقافة لقرون طويلة كجذوة متأججة ومشتعلة تحمي الكيانات الإسلامية من الضياع والفناء.

وجدت هذه المجتمعات ضالتها في الثقافة الشعبية التي أخذت تنشط وتشتغل على كل المستويات، مقدمة حلولاً عملية ووظيفية لكل المشاكل العالقة . والشيء اللافت للنظر أن حضارة الكتابة التي أصبحت عديمة الفعالية قد أخذت تدريجيا في التحول إلى عالم المشافهة .

وهكذا تحولت السيرة النبوية الشريفة وسير الصحابة والصالحين إلى سير شفوية يقوم الرواة بمسرحتها في المجالس والأسواق والساحات العامة. نزلت الثقافة المكتوبة من عليائها وبروجها العاجية لتخاطب الجماهير بلغة الأسطورة والخيال الشعبي. نفذت هذه الثقافة المأسطرة إلى أعماق الذات الإنسانية وتغلغلت في وجدان وأحاسيس الجماعة البشرية، لتعايش الحضارة الإسلامية خارج التاريخ وبدون وعي تاريخي، بعيدا عن ديناميكية الحياة وفعالية الإبداع .

ومهما كانت الأحوال، فإن حضارة المشافهة، رغم محدوديتها قد استطاعت تأدية دورها التاريخي الإيجابي في مقاومة المد الصليبي وتأخيرا وصول الغزو الاستعماري لقرون عديدة.

المشافهة والكتابة بين العولمة الاستعمارية والعولمة الجديدة

إن المشافهة هي الأصل والكتابة هي الفرع. ترتبط المشافهة بالأبنية الأنثروبولوجية العميقة للإنسان وباللاشعور الجمعي والنماذج العليا الخالدة . لذلك لا نستغرب وجود تشابه كبير بين المكونات الثقافية الشعبية في مختلف بلدان العالم ، رغم الاختلاف والتميز والتنوع والخصوصية . تقوم كل ثقافة شعبية على جدلية الثابت والمتحول، أي جدلية العالمية والمحلية. فهناك ما يعرف بالثوابت الإنسانية المتعالية على التاريخ ، وهي لصيقة بالنوع الإنساني وتمثل القواسم المشتركة لكل الشعوب والأمم . يقول ابن خلدون :" الإنسان هو الإنسان في كل زمان ومكان . والإنسان ليس هو الإنسان في كل زمان ومكان ". يبدو لأول وهلة أن هناك تناقضا صارخا بين العبارتين ، لأن الثانية تبدو نافية للأولى . لكن القراءة الذكية تكشف عن وعي عميق بإشكالية المشاكلة والاختلاف من منظور إنساني حضاري .

يقول المثل المعروف " المعرفة صيد والكتابة قيد " . فالكتابة تعمل على تقييد المطلق وتخصيص العام وضبط الرؤى والمفاهيم . وهي تنتمي إلى الجهة اليسرى من المخ حيث تنشط العمليات العقلية والمنطقية والرياضية . الكتابة تمركز حول العقل والفكر والقانون.الكتابة أداة تواصلية إعلامية تنمي قدرات حاسة البصر وتغذي طاقات المشاهدة والمعاينة داخل أفضية متعددة الأبعاد.
التخاطب الشفوي ينتهي مباشرة بعد عمليات التلفظ وانجاز فعل الكلام. أما الخطاب المكتوب فهو يتحدى الزمن ويقاوم التاريخ ويحقق الامتداد والديمومة في الزمان والمكان والتاريخ.

الكتابة ليست أداة اتصال حيادية بل هي في حد ذاتها وسيط وموضوع ورسالة. وبغض النظر عن مقاصدها الأصلية ووظائفها المباشرة، فقد شكلت كيان الإنسان دون أن يشعر وغيرت علاقته بنفسه وبالآخرين وبالحياة.وبخلاف المشافهة التي تقدس الروح الجماعية، فإن الكتابة انفصال واعتزال وتفرد. إنها ممارسة للحرية واعمال للعقل وتحمل مسؤولية. ويرى علماء الاتصال أن الكتابة وسيلة إعلامية سأخنة لأنها انغلاق وتسييج لبنية نصية مستقلة ومحددة لا تحتمل التغيير والإضافة .

فمهما كانت القراءات والتأويلات ، فإنها في كل الأحوال تبقى ملتصقة بمادية النص وحرفيته. فالمتلقي، رغم حريته النسبية، لا يستطيع محو الكتابة والغائها بصفة نهائية، لأنها تشكل واقعا ملموسا وحقيقة مطلقة . الكتابة رسم ونسخ وتخطيط ونقش وتخليد، مهما كانت القراءات والتأويلات. وهي اشتغال على القضاء المترامي الأطراف لعقلنة الحياة ومفهمة الوجود . وهي بخلاف المشافهة التي ترنو إلى الكليات ، تتجه نحو العالم الذري المتناهي في الصغر، ألا وهو الحرف .

إن ثقافة الكتابة تحتضن الملاحم والأساطير والمرويات الكبرى وتدونها، ولكنها عاجزة كل العجز عن ابتداعها من العدم . لأن هذه الإبداعات تبقى حكرا

على ثقافة المشافهة وما يتصل بها من سياقات اجتماعية وحضارية. إن الكتابة لا تبتدع الملحمة والأسطورة والمأساة ، ولكنها تبتدع الملحمي والأسطوري والتراجيدي، بصفتها عناصر بنيوية مهيكلة مع مكونات أخرى ، للأنماط الكتابية الجامعة. إن الأجناس الأدبية الشفوية تتسلل بطريقة أو بأخرى إلى الأجناس الثقافية المكتوبة لتخصيبها وتغذيتها. فهي حاضرة في هيئة " أثر " كما يقول جاك ديدا ومحكومة بقانون الانتشار والتشظي.

إن كل وسيلة إعلامية تستحوذ على سابقتها لتجعل منها محتوى ومضمونا ، فالمشافهة تشكل دوما المضمون الحقيقي للكتابة التي تؤطرها وتصوغها فكريا وجماليا وابداعيا . ثم يأتي دور الكتابة لتكون مضمونا للصورة السينمائية ، وهكذا دواليك إلى أن نصل إلى آخر حلقة مكونة لسلسلة الوسائل والقنوات الإعلامية.

احتلت الثقافة المكتوبة مكانا مرموقا في العصر الكلاسيكي ، حيث تمكنت من تفعيل وتنشيط الإرث الحضاري اليوناني والروماني القائم على النزعة الإنسانية وتمجيد العقل وعلى تقديس قيم الحرية والإبداع الحضاري ، خدمة للطبقة الأرستقراطية المهيمنة وللملكية المسيطرة في أوروبا واضفاء للشرعية على الطبقات الصاعدة .وقد استنكفت الآداب الكلاسيكية عن ألنزول إلى الثقافات الشعبية واللهجات المحلية، وفاء لمرجعياتها المعروفة .

لكن مع عصر التنوير بدأت تلوح في الأفق توجهات فلسفية وثقافية جديدة تسعى لتقويض الشرعية الملكية وما يتصل بها من قيم وأفكار ورؤى فنية . وقد وجدت هذه التوجهات في الثقافة الشعبية سندا قويا وحليفا طبيعيا لمناهضة الاستبداد الملكي والهيمنة الكنسية.إن نضالات فلاسفة وأدباء عصر التنوير معروفة في هذا المجال. لقد غير روسو وفولتير ومونتسكيو وديدرو والموسوعيين في فرنسا مجرى التاريخ بإنجازهم لمشروع الثورة الفرنسية وتخطيطهم لـ " إنجيلها".دعا روسو في كتاباته الفلسفية والأدبية إلى ضرورة الرجوع إلى حياة الفطرة والبراءة الأولى والذوبان في بساطة الحياة ونضارتها وعفويتها.

ظهر ذلك جليا في كتاباته الفلسفية التي سعت إلى تقويض شرعية الملكية الثيوقراطية المستبدة والمناداة بسيادة الشعب.ويظهر هذا بوضوح في "العقد الاجتماعي" و"أصل اللا مساواة". كما أعادت بعض أفكاره الاعتبار إلى الإنسان المتوحش البدائي، وروجت لأسطورة "المتوحش الطيب" في مواجهة حضارة الاستلاب والاغتراب والدمار التي أخذت في بسط سيطرتها تدريجيا على الغرب. كما لجأ إلى الكتابة الأدبية لإضفاء أبعاد إنسانية وجمالية وفنية وطوباوية على هذا الحلم الكبير. فكثير من إبداعاته الأدبية، مثل "اعترافات" و"أحلام متجول انعزالي" و"إميل"، تصب كلها في هذا التوجه الجديد الذي يتغنى بالعراقة الشعبية وجمال الطبيعة ودفء الارتباط بالجذور والانتماءات الأصلية.وقد عد روسو مرجعية مؤسسة من مرجعيات الرومانسية التي انتشرت في أوروبا في نهاية القرن الثامن عشر والنصف الأول من القرن التاسع عشر.

وقد تغنت هذه الحركة الأدبية المتشعبة بمبادئ الثورة الفرنسية وقيم العدالة والتحرر، تغنت بالآداب الشعبية والآداب الريفية وأغاني الرعاة وبكل ما كان منبوذا لدى الكلاسيكيين. فإذا كان النموذج الأعلى في الإبداع بالنسبة للكلاسيكيين هو النموذج اليوناني والروماني، فإن المرجعيات الكبرى بالنسبة للرومانسيين تتمثل في الآداب الشفوية والمعتقدات الشعبية التي سادت طيلة القرون الوسطى، والتي نهلوا منها ونسجوا على منوالها واستحضروها موضوعات ورؤى وأساليب وصورا وجماليات.فكل إبداعات الرومانسيين هي شوق وحنين لهذا الفردوس المفقود ولهذه الحضارة الشفوية التي داستها أقدام البورجوازية الزاحفة ودنستها قيم الحضارة الصناعية المدمرة.

ومن العوامل التي ساعدت كذلك على رواج القيم الحضارية الشفوية في القرن التاسع عشر ظهور النزعة القومية وتطلع كثير من الشعوب الأوروبية إلى تحقيق وحدتها وكيانها القومي داخل دولة ذات سيادة. وقد رأى الفكر القومي في الثقافة الشعبية أهم مكون من مكونات الأمة لأنه يمثل العمق التاريخي، فهو بمثابة الاسمنت المسلح والبوتقة التي تنصهر فيها باقي مكونات الأمة من لغة ومعتقدات وعادات وتقاليد وانجازات حضارية.نلمس هذا بوضوح لدى دعاة القومية في ألمانيا وإيطاليا وبولونيا وبلجيكا وكثير من دول البلقان واوروبا الوسطى.

إن تقديس الهوية القومية في هذه الفترة جعل الثقافات الشعبية تنتعش وتزدهر لتصبح القاطرة التي تقود النضالات الشعبية في مناخ أوروبي يتصف بالمواجهة والصدام لإعادة رسم الخريطة الجغرافية الأوروبية لغويا وسياسيا وثقافيا.

مع انهيار الرومانسية، في منتصف القرن التاسع عشر، وتحقق الدولة القومية، وسيطرة الوضعانية وانتشار تيار العلمنة، وطغيان العقل الأداتي على التفكير، وانتشار التعليم على نطاق واسع في الغرب، أخذت رقعة المشافهة تتقلص لتنحصر في الريف والأحياء الشعبية الفقيرة.

لجأ الأدب الغربي الحديث بواقعيته وبمذاهبه المختلفة إلى استحضار المشافهة كمادة خام وتشكيلها إبداعيا للتعبير عن زخم الحياة وتدفقه وتنوعه وثرائه. وهكذا ضمن الأدب المكتوب لثقافة المشافهة الاستمرارية والبقاء بفضل هذا التلاقح وهذه المزاوجة التي تحقق التعالق الحي والعضوي بين الأبنية الشكلية السطحية والأبنية الشفوية العميقة الخالدة.

تعامل الغرب مع ثقافاته الشعبية على مر الأزمنة والعصور بطرق شتى وفق استراتيجيات مختلفة تبعا لموازين القوى الاجتماعية والثقافية والحضارية. أما تعامله مع ثقافات الحضارات الأخرى غير الأوروبية فانه يحكمه نوع من التمركز حول الذات ورفض الآخر المختلف، انطلاقا من مشاعر الخوف على هويته ومن تبني أحكام مسبقة وصور نمطية جاهزة تحقق ما يعرف بالقتل الرمزي للآخر.

مع التوسعات الاستعمارية وجد الغرب نفسه في مواجهة مجتمعات وثقافات وحضارات أخرى لم يعهدها في السابق. وقد بين المفكر الفلسطيني إدوارد

سعيد في كتابه "الاستشراق" بوضوح كيف أن الغرب الذي وصل إلى قمة الهرم في مجال التطور الصناعي والتكنولوجي أضحى يرى نفسه متربعا على عرش الريادة الحضارية دون منازع، مما يؤهله لاستعمار الشعوب الأخرى التي تقوم حياتها في نظره إلى التوحش والهمجية والسلوك البدائي[1] .

سعت النظريات الأنثروبولوجية الاستعمارية خلال هذه المرحلة إلى حشد التراكم المعرفي الاستشراقي لخدمة المشروع الاستعماري واضفاء الشرعية عليه فكريا وايديولوجيا وثقافيا، وهكذا تحول العرفان من طابعه العلمي إلى أداة استراتيجية لخدمة التوسع والسلطان والهيمنة. وقد ابتدعت تخصصات جديدة مثل الإثنوغرافيا والإثنولوجيا والأنثربولوجيا لإنجاز عمليات المسح المعرفي الشامل لهذه الأقوام "البدائية" السائرة في طريق الفناء والانقراض، والتي يجب الإسراع في وضعها في متحف التاريخ. أما العلوم الإنسانية والاجتماعية الأخرى، مثل علم الاجتماع وعلم النفس وعلم التاريخ،فهي في نظرهم حكر على الدول الغربية المتحضرة.

واجهت أوروبا حضارات المشافهة الشرقية من منطلقات عرقية استعمارية، ونزعت عنها صفة الإبداع والديناميكية والفعالية التاريخية. وفي محاولتها لتحنيط هذه الثقافة غلبت المنظورالإثنوغرافي: العادات، التقاليد، الطقوس، اللباس، المسكن، الفولكلور، الغرابة،..إلخ. والحقيقة أن هذه المظاهر الخارجية هي عبارة عن قشور ثقافية تحجب ما يجري في أعماق الجماعة البشرية من مقاومة وأزمات وتطلعات. وقد أسهب منظرو ثقافة ما بعد الكولونيالية، من أمثال فرانز فانون وإدوارد سعيد وهومي بابا، في شرح الدور التاريخي والحضاري الفعالللأبنية الأنثروبولوجية العميقة لإنسان العالم الثالث في زمن مقاومة الاستعمار.

إن الغرب لم يرد من خلال موقفه المدمر للثقافات الشرقية، إلا رؤية نفسه من خلال الإسقاطات الخاصةبتشكيل هويته النرجسية، باعتباره صانعا للتاريخ. إنها إسقاطات ثقافية حجبت الحقيقة وأبادت عراقة إنسانية وثقافية وحضارية (ما تعرضت له حضارة الهنود الحمر من إبادة كلية يمثل أبشع ما وصلت إليه هذه الروح الإجرامية).وتبقى أحيانا الحقيقة عارية تعجز كل محاولات التغطية والتمويه عن سترتها. ويظهر هذا جليا عندما كشف علماء اللغة والأنثربولوجيا والأساطير والمتخصصين في ثقافات الهندوأوروبية أن الهند، البلد المتخلف والبدائي كما قيل، والذي يرزخ تحت نير الإمبراطورية البريطانية التي لا تغيب الشمس عن ممتلكاتها، هو في الحقيقة أصل أوروبا ومنبع لغاتها وأساطيرها ومعتقداتها وحضاراتها. إن اكتشاف المكون الهندوأوروبي لحضارة الغربية كان بمثابة زلزال رهيب داخل العقل الغربي الاستعلائي. وقد شبه بعضهم هذا الاكتشاف، نظراً لأهميته، باكتشاف أمريكا من طرف كريستوف كولومبس.

[1] - EdwardSaid, *L'Orientalisme.L'Orient créé par l'Occident*, Paris, Seuil, 1980.

وقد كان لترجمة التراث الشعبي العربي إلى اللغات الأوروبية دور بارز في صوغ متخيل غربي جديد وتشكيل رؤية جديدة عن الشرق. وخير مثال على ذلك، ترجمة ألف ليلة وليلة إلى اللغة الفرنسية، والتي امتدت من سنة1704 إلى سنة1717 ، من طرف الفرنسي أنطوان جالان. اكتشف الأوروبيون لأول مرة الشرق الساحر، شرق العجائب والغرائب والخوارق، شرق الجواري والغلمان والأميرات الساحرات .

وقد كان لهذا الاكتشاف تأثير عظيم في تحول موقف الغرب من الشرق. لقد مست هذه الترجمة وما تلتها من ترجمـات مختلف الشرائح الاجتماعية ، مما جعل هـذا الكتاب يأتي في المرتبة الثانية ، مـن حيث المقروئية، مباشرة بعد الإنجيل. ونتج عن ذلك اهتمام متزايد بالشرق ورغبة جامحة في تملكه والسيطرة عليه وعلى خيراته وعلى كنوزه الحقيقية والاستيهامية والرمزية. والنتيجة الطبيعية لكل ذلك هيانطلاق الحملات الاستعمارية وإنجاز الطوباوية الغربية الجديدة.

لقد حاولت حضارة الكتابة الغربية جاهدة القضاء على حضارة المشافهة في البلدان المستعمرة وسحقها دون رحمة عن طريق اقتلاع الجذور واستئصالها وتفجيرها من الداخل وهذا ما حدث في الجزائر حيث عمدت فرنسا إلى نسف حضارة المشافهة وترك الإنسان الجزائري ريشة في مهب الريح تذروه الرياح كيفما تشاء بدون ملجأ أو قرار، عرضة للاستلاب والتيه والضياع[1].

لقد حرم الشعب الجزائري من منابع ثقافته الحية بشقيها: الشفوي والمكتوب ، دون أن يسمح له بولوج ثقافة الكتابة الفرنسية، لأن التمدرس باللغة الفرنسية هو حكر على القلة القليلة من المرتبطين بالمجتمع الاستعماري.أما الأغلبية الساحقة من أبناء الشعب فقد حيل بينها وبين الدراسة، لأن الشعب المتعلم لا يستعمر.

ذهب الاستعمار وجاءت الدولة الوطنية حاملة لمشاريع وبرامج تنموية لكن بدون مشروع حضاري وبدون رؤية مستقبلية استشرافية، تنجز على الأمد القريب والمتوسط والبعيد، مشروع بعث الإنسانية الجديدة التي بشرت بها أحلام صناع المقاومة والتحرر.

تشبعت الدولة الوطنية بحضارة الكتابة التي أضحت أداة "تغريب" فعالة مطبقة لسياسة تنموية عمادها تكنولوجية الكتابة والعقلنة المفرطة والحداثة والتحديث. وكان من نتيجة ذلك جملة من الاختلالات في الانتماءات الأصلية وفي التوازنات الكبرى وفي ربط الاستراتيجيات بالمقاصد الكبرى.

[1] Yvonne Turin, *Affrontements culturels dans l'Algérie coloniale,* Paris, Maspero, 1970.-

وعليه، يمكن أن نقول إن البلدان العربية في أمس الحاجة إلى مشروع حضاري يوفق بين الجذور والتطلعات، بين انتماءات المشافهة الأصلية العميقة ومستلزمات ثقافة الكتابة، للالتحاق بالركب الحضاري والتحكم في مسارات المستقبل، خاصة وأننا نعيش في عالم لا يرحم، تتجاذبه المصالح والأهواء وإرادة التحكم في كل شيء.

بعد هذه الإطالة على جدلية المشافهة والكتابة، يجدر بنا أن نلقي نظرة ولو مختصرة على المآل الذي ستؤول إليه حضارة الكتابة في زمن سيطرت عليه حضارة الصورة، ويغذيه انفجار إعلامي معرفي رهيب. لقد وجدت الكتابة نفسها في منافسة شرسة مع حضارة الصور والحضارة الإلكترونية. لقد أضحى شعار إنسان حضارة الصورة اليوم هو "يجب أن نتماهى كلية مع ما نشاهده ونراه".

وهذا دليل على أن الصورة تمكنت من التغلغل إلى أعماق مكونات الإنسان لتبرمج الحس الفني والذوق والرغبات والوجدان والفكر والسلوك والرؤى والقيم والأحكام الإنسانية. ولم تعد الوسائط الإعلامية أدوات حيادية لتوصيل الرسائل والمضامين، بل أضحت في حد ذاتها رسائل ومحتويات، نظرا للتكنولوجيا الجهنمية المسخرة لتحقيق التحكم والهيمنة الإعلامية : الأضواء، الألوان، الهندسة، الصوت، التركيب، الديكور، الألبسة،التقنيات..الخ.

أمام هذا الإحكام في البرمجة، فإن الإنسان لا يتوفر إلا على هامش بسيط من الوعيوالحرية والروح النقدية، ولم يعد يعتد كثيرا بالرسالة والموضوع والمحتوى والمدلولات، لأن القنوات والوسائط والدوال أصبحت في حدذاتها رسائل لأنها تحيل على نفسها وعلى نرجسيتها وعلى نسقها المكتفي بذاته. وقد لخصها العالم ماك لوهان بعبارة استشرافية تنبؤية: "الرسالة هي القناة". لقد وجد الإنسان نفسه يتماهى بشكل آلي مع الصور السينمائية والتلفزيونية والإشهارية التي تمزج بين حاستي السمع والبصر، أي بين مشافهة الكترونية جديدة وكتابة مدعمة بالأبجدية التصويرية والخطية. لقد أصبحت هوليوود "مصنع الأحلام" رمزا لهذه الطوباوية الجديدة.إن الكتابة الجديدة تخاطب كل حواس الإنسان وكل مكوناته بهدف إدماجه في فضاء هندسي سيبرنيتيكي متعدد الأبعاد. وقد وجدت المشافهة التقليدية نفسها أمام تحديات كبرى نظرا لصعوبة تأقلمها واندماجها داخل "القرية الكونية" الجديدة التي تبشر بنهاية التاريخ وبموت الإنسان التقليدي.

إنها الحضارة الجديدة، الحضارة الافتراضية والرقمية التي ورثت كل الحضارات وتجاوزتها نحو نموذج حضاري جديد يعيد تشكيل نفسه في كل لحظة ووفق وتيرة سريعة.

إن العولمة الجديدة التي أطلت على الإنسانية مع نهاية القرن العشرين تهدف إلى تنميط العالم بعد إشاعة الفوضى الخلاقة وتقويض أنماط الحياة التقليدية بغية تحقيق سيطرة القوي على الضعيف والتحكم في مصير العالم، مستعينة في ذلك

بالإبداعات السمعية البصرية وبمجتمع المعرفة وبوسائل الإعلام وبالشركات المتعددة الجنسيات وبالمؤسسات المالية الدولية والمنظمات الدولية.

إن النموذج الذي يجب الاقتداء به والنسج على منواله في كل شيء هو النموذج الأمريكي للحياةAmerican way of life الذي يجب أن يسود العالم ويقضي على كل الخصوصيات الثقافية. وهذا يعني أن الخصوصية الثقافية الأمريكية سمي بها في مدارج الكمال لتصبح مرادفة للعالمية الحقة في مجال الثقافة والفن والفكر والاقتصاد والسياسة.

هذا التقديس للنموذج الثقافي الأمريكي بصفة خاصة والغربي بصفة عامة، يتم عبر فكرة إزاحة الثقافات العالمية العريقة التي أعطت الإنسانية على مر العصور قيما ثقافية وفنية وحضارية خلدها التاريخ. انطلاقا من هذه المركزية غدا العقل الغربي عقلا إنسانيا عالميا علميا وعبقريا بلا منازع وبامتياز، وما سواه همجية وانحطاط. وقد قام فلاسفة التفكيك وعلى رأسهم دريدا بتقويض وتفكيك المنظومة العقلية الغربية لتبيان مكوناتها الميتافيزيقية والعرقية والعنصرية والجهوية والأسطورية. إنه عقل يتمركز حول نفسه يعادي الفطرة الإنسانية ويرفض الحوار والتواصل مع غيره و يحارب الطبيعة والنزعة الإنسانية الحقة. حوكم هذا العقل واتهم بأنه كان وراء الحروب الصليبية والحروب الدينية والحروب الاستعمارية والحربين العالميتين. وإذا لم يتم ترشيده وتتم أنسنته فإنها سيؤدي حتما إلى القضاء على الحضارة والنوع الإنساني. أزمة العقل تطرح بحدة أزمة الثقافة والحضارة والإنسان. وفي الغرب ذاته برزت تيارات فلسفية وأدبية وفنية تنقد هذا العقل المدمر وتقترح الحلول البديلة التي تتجلى بعض آفاقها في التفكيك ومسرح اللامعقول والعبثية وتجربة التخوم.

تقوم العولمة المتشبعة بالعقل الأداتي والتكنولوجيا العمياء على رفض الاختلاف والتعددية الثقافية والتحاور مع الآخرين.فهي تتأسس على فكرة "صراع الحضارات" رغم تشدقها بـ " حوار الحضارات" ،ذرا للرماد في أعين الناس وتخديرا لهم واستخفافا بعقولهم.

وما يجري في بعض البلدان الإسلامية والعالم الثالث برهان ساطع على أن العولمة المتوحشة تتبع سياسة الأرض المحروقة لمحو الهويات الثقافية والخصوصيات الحضارية.

تدعي العولمة بأنها تحترم الثقافات المحلية وتشجع استعمالها في الإبداعات السمعية البصرية، لكن الحقيقة هي أن العولمة تفرغ هذه الثقافات من هويتها وديناميكيتها وكينونتها لتنزع عنها الفعالية والتأثير والإشعاعية فتبقى جسدا بلا روح يستهوي بغرائبيته وعجائبيته وأنماطه المحنطة السياح الأجانب الذين ينتشون بهذا المتحف الإنساني الجديد وبهذه الفرجة المثلى.

وما يهدد الإبداعات الثقافية العربية اليوم هو أنها في غالبيتها ليست ثقافات إبداعية بمعنى الكلمة. إضافة إلى ذلك فإنها لا تمتلك أدوات ووسائل الرواج

والانتشار والتمكين (الترجمة والإشهار والإعلام والتثمين السمعي البصري..الخ).فهناك آثار ثقافية عربية أصيلة ذات قيمة عالمية لكنها تعيش مغمورة ومغيبة عالميا نظرا لافتقارها لوسائل النقل والإشهار التي تتحكم في رواج السلع الثقافية. ويلاحظ أن كثيرا من إبداعاتنا الثقافية السمعية البصرية (أفلام، مسلسلات، تمثيليات) لا تتعدى مستوى التسلية والترفيه ودغدغة الغرائز والمشاعر المنحطة. والنتيجة هي انحطاط ثقافي شامل وعجز كلي عن مواجهة ثقافة العولمة الزاحفة والتي تهدد بالإتيان على
الأخضر واليابس.

كل فعل يؤدي كما يقال إلى رد فعل، ودوام الحال من المحال، والتغيير والتحول من سنن الكون ونواميس الحياة. وقديما قال اليونان "الإنسان مقياس كل شيء". لقد أفرزت العولمة مقاومة شرسة وعلى جميع الأصعدة في الشرق كما في الغرب. وتعد المقاومة الثقافية أخطر أنواع المقاومات لأنها تحشد طاقات إبداعية خلاقة وتجند الأبنية الأنثربولوجية العميقة لدى الإنسان. ويمثل تيار العولمة البديلة بمرجعياته الثقافية وبنزعته الإنسانية الواعدة وبالآفاق المشرقة التي يستشرفها حلما جديدا بدأ يراود كثيرا من الشرائح الاجتماعية، خاصة الفئة الشبابية.

إن مشروع النهوض بالثقافة الشعبية وتنميتها وترقيتها مرتبط بالوعي الحضاري وبالفعالية السياسية الإيديولوجية. إن القضية تتجاوز إرادة الأفراد وجهودهم الشخصية لتصبح قضية مصيرية تتعلق بمصير الأمة وبمستقبل الإنسانية قاطبة. يقول المفكر الإفريقي هامباتابا: "عندما يموت شيخ عندنا فإن المكتبة كلها تحترق".

كما يجب الحرص على عدم تسييس ثقافة المشافهة حتى لا تتحول إلى قنابل موقوتة تلجأ إليها الأقليات الانفصالية ذات المشاريع الهدامة لنسف الهوية الوطنية القومية. مهما كانت قوة الأمة ، فإنها عاجزة بمفردها عن مواجهة التحديات الكبرى. نحن نعيش زمن التكتلات الكبرى في العالم ولا تستطيع أي دولة في العالم أن تنطوي على نفسها و تستغني كلية عن الدول الأخرى.وعليه، فإن الثقافة الشعبية مطالبة بتوفير القاعدة المتينة والمرتكزات الأساسية لبلورة مشروع نهضوي حضاري كفيل بتحقيق التراكم الثقافي والمعرفي لتشييد "المدينة الفاضلة" وبعث إنسانية واعدة، وما ذلك على الله بعزيز.

المراجـــع المعتمدة:

لقد استثمر البحث مراجع كثيرة تتسم بالثراء والتنوع. ونذكر بعضها على سبيل التمثيل لا لحصر، علما بأن طبيعة الموضوع تقتضي الرجوع إلى كثير من حقول العلوم الاجتماعية والإنسانية بهدف الاستنارة ببعض منطلقاتها. كما استعانت الدراسة بما يعرف اليوم بالبينية التخصصية.

المراجع باللغة العربية:

1- أشكروفت، بيل، مع أخرين، الرد بالكتابة. النظرية والتطبيق في آداب المستعمرات القديمة، ترجمة شهرة العالم، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، 2006.

2- إبراهيم نبيلة، الدراسات الشعبية بين النظرية والتطبيق، ط1، المكتبة الأكاديمية، القاهرة، 2000

3- " " ،أشكال التعبير في الأدب الشعبي، ط2، دار غريب للطباعة والنشر، القاهرة، 2000

4- جدعان فهمي، نظرية التراث ودراسات عربية إسلامية أخرى، ط1، وزارة الثقافة، عمان، 2010

5- خورشيد فاروق، عالم الأدب الشعبي، ط1، دار الشرق، القاهرة 1991

6- زكي أحمد كمال، الأساطير. دراسة نظرية مقارنة، ط2، دار العودة، بيروت، د.ت.

فريدريش لوهانس،تاريخ الكتابة، ترجمة سليمان أحمد الطاهر،منشورات وزارة الثقافة، دمشق،2004

8- هارمانهارالد، تاريخ اللغات ومستقبلها. عالم بابلي، ترجمة سامي سمعون، المجلس الوطني للفنون والتراث، الدوحة، 2006

9- رانيلاأ.ب، الماضي المشترك بين العرب والغرب، أصول الآداب الشعبية الغربية، ترجمة نبيلة إبراهيم، مراجعة فاطمة موسى، عالم المعرفة، الكويت، يناير 1999

المراجع باللغات الأجنبية:

1- Diagne, Moussa, Critique de la raison orale. Les pratiques discursives en Afrique noire, Paris, Karthala, 2005

2- Goody, Jack,La Raison graphique. La domestication de la pensée sauvage, Paris, Minuit, 1979.

3- « Entre l'oralité et l'écriture, Paris, P.U.F, 1994. «

4- Luhan ,MarshallMc, Understanding media, New York, McGraw-Hill Book Company 1964.

5- Ong, W.J, Orality and literacy, the technologizing of the word, London and New York, Methuen (New, Accents series), 1982.

6- Ouvrage collectif, Hommage à Milmanparry, le style formulaire de l'épopée homérique et la théorie de l'oralité politique, Amsterdam, Gieben, 1997.

7- Powell, B.B, Homer and the origin of Greek alphabet, Cambridge, New York and Melbourne, Cambridge university press, 1991.

8- Said, Edward, L'Orientalisme.L'Orient créé par l'Occident, Paris, Seuil, 1980.

9- Strauss, Claudelevi,La Pensée sauvage, Paris, Plon, 1962.

10- « , Tristes tropiques, Paris, Plon, 1955. «

11- TurinYvonne, Affrontements culturels dans l'Algérie coloniale, Paris, Maspero, 1970.

12- Waquet Françoise, Parler comme un livre, Paris, Albin Michel, 1970.